الشعر في هذا العصر

لا نظن ان التاريخ قد روى عن امة من الامم ان الشعر قد وصل فيها من الابتذال والضعة والفساد الى الدرجة التي وصل اليها الشعر العربي في البلاد الشرقية بل انه يكفي لوصف ابتذال الشعر عندنا انهم كانوا يقولون ان كل شاعر كاتب ولا يعكس فصرنا نقول الان ان كل كاتب شاعر على وجه التعميم والاطلاق وان مزية الشعر قد انتفت فلم يعد لها اثر من الاختصاص

على انه لئن ساءنا ان الشعر قد وصل الى هذه المنزلة الساقطة من تعرض الجاهلين له لقد سرنا ان ابتذاله ذلك قد كان من اكبر العوامل على اجادة البعض له وتشريفهم اياه بحيث كان اولئك المبتذلون له كحجارة اساس القيت كما يتفق ليبدو فوقها جمال البناء وانتساقه ولذلك ظهر بيننا جماعة من الشعراء اوشكوا ان يعيدوا باجادتهم رونق الشعر القديم الصحيح ويرجعوا ما غالته القرون من جماله وحسن وضعه

ولقد يدعي البعض ممن لا يرون لحاضر فضلاً ان من بدا بيننا من الشعراء المجيدين انما هم مجيدون بالقياس الى مبتذل الشعر وساقطه المنتشر الان وانهم لا يكادون يقاسون بغيرهم من القدماء حتى يبدو نقصهم ويتبين عجزهم . ولكن الذين يدعون ذلك انما تصدق دعواهم حين يريدون نسبة بعض المجيدين من شعرائنا الى نفر من فحول الشعراء السابقين الذين كان الشعر صناعتهم الدائمة وشغلهم الملازم للحياة والذين تناهبوا اكثر معاني الشعر الجيدة وابتدعوا الطف طرائقه واساليبه بحيث انه اذا اجاد احد بعدهم فانما يكون سائراً على سبيلهم مقلداً لطريقتهم وليس في ذلك على حسب اعتقادهم

كبير فضل ولا دلالة سبق . ونعم ان ما يقولونه لصادق من بعض الوجوه ولكن اذا قصر المجيد من شعرائنا عن ان يكون كاحد شعرائنا الثلاثة السابقين او اذ كانت قد بلغت منزلته من القول ان يقاس بهم ويقابل بين ما قاله وقالوه فان ذلك لا يعد لدى الحقيقة تقصيراً بل انه يعد فضلاً كبيراً ولا سيما لبعد الفترة بينهم وبيننا وامتناع وسائلهم علينا . الا ان المجيدين منا حين يقاسون بالمجيدين من شعراء القرون التي توسطت بيننا وبين اولئك المبتدعين البارعين فانهم قد يظهرون مثلهم بل ان فيهم من يكون اشعر منهم . وما نظن ان مثل ابن النبيه وابن معتوق وابن مطروح واشباههم ممن دوّن التاريخ اشعارهم بافضل من بعض شعرائنا المجيدين الحاضرين الذين كثيراً ما تنشر مجلتنا اقوالهم ونطالعها في سواها من سائر المجلات فضلاً عن انهم قد تعلقوا من المعاني الجديدة والاغراض العصرية على ما لم يكن يعرفه أولئك فنزلوا بذلك في منزلة المخترعين المبتدعين وقد يظهر بعدهم من يتمم محاسن ما بدأوا به فينتقل الشعر بيننا من حالته القاصرة على المديح والرثاء الى حالة جديدة يستجد بها حسن الشعر ولطفه . ثم ان ابتذال الشعر عندنا وان يكن قد زاد عما يحتمل فانه لم يكن بدعة جديدة ولا ظهر عن غباوة اقتضتها حال اللغة العربية في هذا العصر بل ان ابتذال الشعر قد كان ولا شك في كل زمان وقد فشا بين كل قوم وحسبك ان العرب على كون الشعر حليتهم الوحيدة وفنهم الجميل المنتشر بين كل حلقاتهم انهم لم يكونوا يخلون من جماهير من الشعراء الساقطين المقصرين عن حقيقة وقياس . ولهذا لم يبدُ منهم الا جماعة معدودون يعدون قليلين جداً حين الاضافة الى مبلغ الشعر في ذلك العهد وعدد الشعراء الذين كانوا فيه وهو ما يدلك على ان الرديء لا بد منه لوجود الطيب الجيد وان

ما يتذل عندنا من الشعر ويسقط انما هو عامل كبير لوضوح ما يستجاد منه ويحفظ . وعندنا انه لو كان ادباؤنا وبالتالي اصحاب جرائدنا ومجلاتنا ينوهون بحسنات كل شاعر ويذكرون تقصير كل مدع مغرور لشرفوا قدر الشعر كثيراً واعانوا المجيدين منا على الاجادة وكانوا من اكبر الاسباب على نقل الشعر من حالة فوضاه الحاضرة الى حالة منتظمة محدودة الجوانب

ولقد ساقنا الى هذا الحديث ديوان أهدي الينا من حضرة الشاعر المجيد محمد افندي حافظ ابرهيم احد الشعراء البارعين الذين اشرنا اليهم في هذا المقال ولذلك افردنا له هذا الفصل تنويهاً به وايفاء لحقه من المديح ونحن ننقل هنا شيئاً من شعره يكون كتزكية للشهادة عليه

فمما نظمه وهو في السودان قوله

اثرت بنا من الشوق القديم ... وذكرى ذلك العيش الرخيم
وايام كسوناها جمالاً ... وارقصنا لها فلك النعيم
ملأناها بنا حسناً فكانت ... بجيد الدهر كالعقد النظيم
وفتيان مساميح عليهم ... جلابيب من الذوق السليم
لهم شيم الدُّ من الاماني ... واطرب من معاطاة النديم
دعوتهم الى انس فوافوا ... موافاة الكريم الى الكريم
وجاءوا كالقطا وردت نميراً ... على ظمإٍ وهبوا كالنسيم

ومما يستعذب من شعره قوله يصف الخمر مقتدياً باشباه ابي نواس

اوشك الديك ان يصيح ونفسي ... بين هم وبين ظن وحدس
يا غلام المدام والكاس والطا ... س وهيئ لنا مكاناً كامس
واطلق الشمس من غياهب هذا الد ... ن واملأ من ذلك النور كاسي

واسقنا يا غلام حتى ترانا ... لا نطيق الكلام الا بهمس
خمرة قيل انهم عصروها ... من خدود الملاح في يوم عرس

ومما يدل على جودة اسلوبه ونسقه الشعري قوله من قصيدة بعث بها الى حضرة صديقه الشاعر المجيد محمد بك هلال الذي تولى شرح ديوانه هذا

هجمت يا طير ولم اهجع ... ما انت الا عاشق مدّع
لو كنت ممن يعرفون الجوى ... قضيت هذا الليل سهداً معي
لله ما ابقى فؤاد الدجى ... على فؤاد العاشق المولع
واغيد اسكنته في الحشا ... وقلت يا نفس به فاقنعي
نفاره اسرع من خاطري ... وصده اقرب من مدمعي

وفي الديوان حسنات كثيرة من مثل هذه وهو آخذ فيها بكل طرف متعلق بها على كل غرض بحيث كان شاعراً تاماً يجيد في كل معنى . ولو كان المقام يتسع لاكثر مما ذكرنا لزدنا في الدلالة والشهادة واوضحنا الذي قلناه من ان بعض شعرائنا الحاضرين يفوقون في اكثر الحالات بعض شعرائنا المجيدين المتوسطين بين هذا العهد والعهد الاول

على ان الذي نقلناه من ديوانه قد نقلناه حين المرور عليه كما يجيء دون انتخاب له ولكنه مع الذي اغفلنا نقله ان لم يكن كله كثير المعاني مبتدعاً فانه حسن الديباجة محكم الوشي والسرد واكثره يجري على نمط الحذاق الماضين الذين لا يعد تقليد طريقتهم والجري معهم بالامر الهين اليسير ذلك عدا تحاشي سقطاتهم وتجنب عيوبهم وهو فضل آخر لم يتحلَّ به الا قليلون من اهل هذه الصناعة